مُناقشات

الاممية ذلك الصنم ...
العروبة اولاً ...

بقلم ناجي علوش

كم اعجبني مقال الاستاذ عبدالله عبد الدائم (انسانية لا اممية) ولكن كم آلمتني الردود ،واولها رد الاستاذ الهنداوي الذي يقول :« ليت الدعوة الى القومية بمستغربة ولا الدعوة الى الاممية، جناية ما دامت الامة تتخبط في تجارب جديدة قائمة على الثورة على القديم وطلب الصالح الملائم للافراد والجماعة..وأما انالقومية تعيد الانسان الميكانيكي المسمر الى الكائن الحي المفكر على عكس الاممية فتلك دعوى لا حقيقة لها إلخ » . وبعد ذلك اتهم الاشتراكية بضيق التفكير وقال « ثم تمتد منه فروع الى الاممية التي تريد ان تطبق الانسانية كواقع ملموس لا كضباب غائم » وقال ايضاً « ان الامة العربية لم تصل إلى شيء من الحكم المذهبي الصحيح وانما هي نظريات مجردة منفتحة يتخبط فيها افراد يبشرون ولا يقررون والوصول إلى القومية الاشتراكية مرحلة ضروريةقبل الوصول الى الاممية» هذا ما قرره الاستاذ الهنداوي . اما الاستاذ محمد عمارة فيقرر ان الفكرة العربية لم تمر بمرحلة عاطفية كما يقول الاستاذ الكبير عبد الدائم ويقول : ان الفكر العربي ليس مدعواً لتكوين مذهب جديد لان اهداف الانسانية واحدة . وهو ينكر على الاستاذ عبد الدائم عدم قوله بأن القومية مرحلة تاريخية . ثم يقول ان القومية نشأت مع الرأسمالية واخيراً يتهم الاشتراكية العربية بانها نازية فاشية تذكره بالأسوف عليها اشتراكية هتلر . ويتفق الاثنان على ما يلي :

١ – ان القومية مرحلة تاريخية وهي بنت الرأسمالية .

٢ – في عدم التفريق بين الانسانية والاممية .

٣ – في اتهام الاشتراكية العربية بالضيق .. والغموض .. والعنصرية

٤ – في التقريرية والشكلية التي غمرت موضوعيها .

هذه هي الاشياء التي اتفق عليها الكاتبان الكريمان وهي خطوط الموضوعين العريضة : وقد تركت البحث فيمايختلفان به لاني لا أريده وليس له صلة في البحث . أما أن القومية مرحلة تاريخية فلست أدري كيف اتفق الكاتبان عليه وكيف اعتبر الاستاذ محمد عماره أن القوميات كالعصبيات القبلية تذوب أو تصهر لتكون المجتمع الانساني ونسي الفرق العظيم بين العصبية وبين القومية ... نسي او تناسى أن القومية امتداد طبيعي للقبيلة.. ونسي ما بين القبائل من أواصر ووشائج لا تتوفر في الامم...ونسي ايضاً الفوارق بين هذه الامم . ولست ادري كيف اتفق الكتابان على هذا ... ولست ادري علام استندا . فان كانا قد ركنا الى منطق المادية التاريخية – وهذا ما اعتقده ، فالقضية بسيطة .

قال (ماركس) إن المجتمع البشري قدمر في تطوره : بالمشاعية فالعبودية فالاقطاعية وسيمر بالرأسمالية فالاشتراكية فالشيوعية (المشاعية) . وقد استنتج ذلك بواسطة منطقه الجدلي المادي ولكن هل مر الانسان حقيقة بالمشاعية فالعبودية فالاقطاعية؟ وهل سيمر بالرأسمالية فالاشتراكية فالشيوعية؟ هذا ما يناقضه منطق التاريخ والواقع والعلم: فهل هنالك أمة مرت بالمشاعية فالعبودية فالاقطاعية فالرأسماليةفالاشتراكية ؟ وفي هذا التحديددراسةخيالية للمجتمع البشري وقد أهملت هذه التحديدات (القبلية) مع أن كل الامم قد مرت بها . ولكن بأي منطق قرر (ماركس) هذا ؟ بالمنطق الجدلي . ولكن هل (الجدل) حقيقة ؟

يقول (ماركس) إن التاريخ صراع طبقات وتتولد من جراء هذا الصراع حالة ثالثة خير من النقيضين،وبهذه الطريقة يستمر التاريخ ويستمر التطور . ولكن ممن تخلق حالة جديدة او نقيض ليصارع هذا النقيض ؟ هل يمكن ان تخلق من العدم ؟ هذه هي القضية . والقضية الثانية هي ان خرافة الجدل (الديالكتيك) هي امتداد للثنائية الاسطورية التي استعبدت الفكر البشري وهو ليس (ماديا) وانما هو منسوب للمادة : وسيقودنا البحث الى ان (ماركس) الذي حارب الشكلية قد وقع في اعمق هواها وذلك بفرضه ان التاريخ صراع طبقات وانه سيمر من كذا الى كذا وكأن في يده خريطة التطور او كأن المراحل التي يمر بها التاريخ معروفة نستطيع ان نعيها بسهولة كما نقول ان الذاهب من بغداد إلى دمشق يمر بمدينة كذا ثم كذا .. ثم كذا ...! وقد اسلم (ماركس)منطقه هذا الى تناقض بين واضح . فهو يقول ان المجتمع ابتدأ باللاطبقية (المشاعية) وانتقل الى الطبقية فمن اين كان التطور ؟ وهل كان في اللاطبقية صراع طبقات ؟! ثم يقول ان المجتمع سيمر بالاشتراكية فالشيوعية وكل منهما مرحلة تاريخية وتطور ولكن كيف يكون هذا التطور وهذا التاريخ ؟ اتوجد طبقات في الاشتراكية والشيوعية ؟ ايوجد صراع ؟ وإذا كان عدم وجود الطبقات بدهياً فكيف يكون التطور ؟ سيقولون في الاشتراكية يبدأ صراع الانسان والطبيعة ؛ ولكني اجيب : ومتى لم يكن الانسان في صراع مع الطبيعة ؟ .. وهل الطبيعة طبقة ؟ الحق ان « ماركس » يجمد التاريخ ويجعله يدور في حلقة مفرغة ، وهي فلسفة قديمة كانت تؤمن ان التاريخ يعيد نفسه .

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان التنبؤ في العلم خطأ ، وان صحت نتائجه فكيف اجاز ماركس لنفسه ان يتنبأ ؟ سيقولون : نتيجة لدراسة جدلية للواقع . واجيب : لم يقل (ماركس) إن الثورة العمالية ستقوم في انكلترا او المانيا ، ولكن لماذا قامت في روسيا وفي الصين ؟ ثم إن (ماركس) كان يؤمن ان المجتمع لا يمكن ان يتجاوز مرحلة من المراحل المذكورة؛فكيفمرت روسيا والصين من الاقطاع والزراعة الى الاشتراكية ؟ الم يقل (ماركس) ان تناقضات الرأسمالية هي التي تقرر حتمية الاشتراكية ؟ هذا ما يثبت فشل النظرية فشلاً فادحاً . وعلى هذا فنحن لا نستطيع ان نقول ان القومية مرحلة ، وان نؤمن بنظرية كذبها التاريخ والواقع ويكذبها العلم .

هذه هي قضيتنا الاولى . اما قضيتنا الثانية فهي التفريق بين الاممية والانسانية والذي اقصده بكلمة (اممية) هو (الشيوعية) والذي اقصده بكلمة (انسانية) هو هذا الواقع الذي يوفر السعادة والراحة للجميع . هنا المشكلة .. فالشيوعية تدعي انها تريد السعادة لبني الانسان وهذا هو الرابط الوحيد بين الاممية والانسانية . ولكن هل تستطيع الاممية تحقيق الانسانية ؟

اذا اردنا ان نفهم ذلك فعلينا ان ندرس منشأ (الاممية) وتاريخها مع أن الكاتب محمد عمارة يحاول ان ينكر صلة الحادثة بنشأتها. وهذا ما أصر عليه الاستاذ عبد الدائم – ولكن كيف ننكر صلة الحادثة بأسبابها ؟ هذا ما لست ادريه... ومالايقبله المنطق . وكيف نترك الاسباب لبحث النتائج ؟ هذا ايضاً منطق جديد . واننا نبحث في الاسباب وفي النتائج، فاذا كانت الاسباب عليلة هل يمكن الا تكون النتائج عليلة ؟ هذا الذي أسأل عنه الاستاذ محمد عمارة . والمادية هي وليدة ظروف معينة – وهذا مالا يستطيع ان ينكره أحد . انها (رد فعل ممرف) لواقع مفكك فاسد: ألا تراها قد قلبت المثالية المطلقة الى مادية مطلقة ؟ وحولت مبدأ الاغتصاب الفردي المطلق الى مبدأ اغتصاب جماعي مطلق ؟ ثم ألا تراها استبدلت القومية النازية بأممية نازية واحالت عبادة الروح الى عبادة المادة ؟ و ... و ... هذه حقائق مسلم بها . اما النتائج فكيف يمكن ان تكون ؟

لست اريد ان اطيل ولكن الذي اريد ان اقوله هو ان هذا النظام فعلا اصبح يفرض على الناس بالنار والحديد ، وانه استحال الى حركة استعبادية تحاول ان تستعبد الفكر البشري ، وقد اتخذته روسيا وسيلة للتوسع والاستعمار الحياتي ، واكبر دليل على ذلك قبولها بالسلم والحياد. هذه ليست القضية ولكن القضية هي : هل يستطيع هذا النظام ان يحقق الانسانية ؟ ايستطيع وهو ذلك النظام الذي لا يؤمن بالحرية ..ذلك النظام الذي ينظر إلى الانسان كبقرة في مزرعة او زنبرك في آلة ؟ هذا هو الذي يجعلنا نشك كل الشك ، وهنالك حقيقة اخرى وهي عدم اعتراف الاممية بالقوميات التي هي ظواهر انسانية لا تتحقق الانسانية بدونها اذ انها مجالات التنفس الطبيعية .

ثم يتهم الكاتبان الكريمان الاستاذ عبد الدائم بضيق النظرة لدعوته للاشتراكية ، وقد استغربت قول الاستاذ عمارة (ان هذه الدعوة. اي دعوة الاستاذ عبد الدائم للاشتراكية العربية – تذكرنا بالمأسوف عليها اشتراكية هتلر ... وايضاً موسولني) والمقارنة بين الاشتراكية العربية والهتلرية او غيرها خطأ فاحش . لان النظام الهتلري النازي لم يكن نظاماً اشتراكياً بل كان ذروة الرأسمالية، وقد كانت تستغل المانيا فيه طبقة (الارستقراطيين) كما تستغل روسيا اليوم طبقة الموظفين ، فكيف يجوز ان يسمى هذا النظام اشتراكية مع انه يتعارض مع مباديء الاشتراكية الاولية واولها عدم استغلال الانسان للانسان ؟ واي صلة .. واي قرابة بين الهتلرية والاشتراكية العربية ، حتى نأخذ الثانية بجريرة الاولى؟ الأن الهتلريه تدعي بأنها قومية ؟ اذا اجرمت النازية فقد اجرمت القوميات ؟ هذا نوع من السفسطة غير المقبولة ولا المعقولة واني استنتج من هذا شيئين:

١ – ان المادية تحارب القوميات – وهذا ما ينكره الماديون –. وانها لا تفرق بين القومية بمعناها السميح والعنصريه بمعناها الفظ

٢ – ان المادية حتى الآن لم تستطع ان تطمس القوميات في بلدان الاتحاد السوفيتي .

اذا آمنا ان لكل امة ظروفها التي تجبرها على السير في سبل تختارها على ضوء واقعها ، واذا آمنا ان الآراء الخارجية تتسرب الى جسم الامة لتتسلط على ارادتها وتقرر مصيرها، الا تكون الامة مدعوة لتخطط منهاجا تسير عليه لا حبا في التخطيط وانما حفظاً لكيانها ؟ وهل يناقض هذا فكرة سعادة الانسان والمستقبل الافضل ؟ وهل معنى قولنا يختلف المنهج اذا اختلفت الظروف اننا نميز تميزاً عنصرياً ؟ لا يا اخي ، اننا لا نميز ... ان العروبة سمحة للغاية وان مبدأها هو (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا).

يؤلمني ... ويؤلمني جداً ربط القومية بذيل الرأسمالية ،ويستند اصحاب هذا الرأي على المنطق الجدلي المادي، ويقول امين العالم: نشأت قوميتنا المصرية من اضرابات التجار ومقاومة الاتراك والانكليز و... و.. هذه هي القومية وهل معنى هذا – اي ربطها بذيل الرأسمالية وبالتالي الاستعمار– انها تموت بموت الرأسمالية؟ ولكن ما بالها قد صمدت في جمهوريات الاتحاد السوفيتي .. امازال هنالك رأسمالية ؟!...

ينكر الماديون انهم يحاربون القومية ، ولكنهم يحاربونها . هم يقولون انظروا الى الجمهوريات الشعبية فان نظام الحياة فيها خير مكذب لما تقولون ، ولكنهم لا يتورعون عن اتهام القومية بأبشع التهم كالتي ذكرها الكاتب محمد عماره وكالتي ذكرها الاستاذ صلاح الدين عبد الصبور في رده على الشاعر المجيد كاظم جواد . يقول الاستاذ عبد الصبور «ليس هنالك عرب بالمعنى الصحيح للأمة والقومية» و«ليس هنالك عنصر عربي خالص» ويقول: «إننا مصريون اولا لغتنا العربية» ويقول (فانت ادرى بأن العنصرية زيف ودعاوي قاصرة اصطنعتها الفاشية حينا والنازية حينا آخر »الى ما هنالك . اما ان ليس هنالك عرب بالمعنى الصحيح للامة وللقومية ، فلست ادري علام استند ؟ فاذا كان قد استند على الحقيقة القائلة (ليس هنالك عنصر عربي خالص) وهذا ما اعتقد، فانه لم يكتشف جديداً. نحن نعرف ان ليس هنالك عنصر خالص كما انه ليس في الارض عنصر جنسي خالص حتى في غابات افريقيا والامازون . وهل في الارض امة سلمت من الاخلاط ؟ هذه الامة الفرنسية لا يعرف العلم نسبتها الاصلية ولا يحصي عدد الافواج التي كونتها . فهل يكفي هذا ليجعلنا نقول : ليس في الارض امة فرنسية وقومية فرنسية ؟ والا فماذا هناك ؟ وعلى هذا الاساس هل توجد امة في العالم ؟

اعتماداً على القول بانه لا يوجد عنصر عربي خالص قال الاستاذ عبد الصبور « نحن مصريون اولا » وقد قرر هذا كما قرره الاستاذ العالم وغيرهما . والاستاذ عبد الصبور يرى ان (هنالك مجموعة من الشعوب متحدة اللغة تواجه مع شعوب العالم الاخرى نفس المشاكل ، ثم يقول : وكفاح تلك الشعوب كفاح موحد في خطه العام ولكنه منفرد في خطواته وسبله وله انتصاراته الخاصة وسماته ومعاركه ، ذلك ان لكل شعب من هذه الشعوب ذاتيته المنفردة)

وهنا تجرد الاستاذ من عروبته كلياً، فمصر ليست عربية والبلاد العربية مجموعة شعوب لكل منها سماته وصفاته ، والرابطة الوحيدة بين هذه الاقطار هو انها تواجه مع شعوب العالم نفس المشاكل ، وبهذا جعل الرابطة بين الاردني والسوري كالرابطة بين الاردني والتركي !؟

وهذا ما يتفق عليه الكاتبان محمد عمارة وعبد الصبور ولكنهما يختلفان عندما يذكر عبد الصبور مميزات الامة المصرية ولا يذكرها محمد عمارة. ولكن ما هي العوامل التي كونت الشخصية المصرية – اذا كانت موجودة– هذا ما لا يذكره عبد الصبور ولا يرد في كلامه الا تلميحاً عندما يقول (فالفتح العربي لم يلغ تاريخ امتنا ووراثاتها) اذن فهو يؤمن بالجنس، والغريب انه يعتبر ان ليس هنالك امة عربية لانه لا يوجد عنصر عربي خالص ، ولكن هل يعتقد الاستاذ ان هنالك عنصراً مصرياً خالصاً

حتى يعتبر ان هنالك امة مصرية وقومية مصرية بالمعنى العلمي الصحيح للامة والقومية ؟.. اذا شئت هذا فان تجد ... وعلى اساس هذا المنطق (غير العلمي) لا توجد امة مصرية كما انها لا توجد على اساس المنطق العلمي.. وانما توجد امة عربية تجمعهـا اواصر اللغة والتاريخ والغاية . تجمعهـا انكسارات الماضي وانتصاراته وانفتاحات المستقبل وابتساماته . واننا اذ نقول إننا ننتسب للامـة العربية ... نتشبث بموجود يستطيع ان يثبت وجوده ... ولكنك في قولك انا مصري.. تتشبث بما هو غير موجود فاين هي الأمة المصرية ؟

اما نعتك القومية بالدعاوي وربطها بالنازية والفاشية واتهامها بالعنصرية كما فعل الاستاذ عمارة فيدل على شيء - يدل على (عمق) فهمك للقومية. نحن لا نقول العرب اشرف امة .. ونحن لا نقول اللغة العربية اشرف اللغات وانما الذي نقوله ان للشعب العربي فرديته وشخصيته وانه شعب من شعوب العالم التي تواجه مشاكل مختلفة تبعاً لظروفها المختلفة وان تقاربت اهدافها ولكننا نعتقد ان لكل من هذه الشعوب سماته وصفاته وانتصاراته الخـاصة ومعـاركه وان لكل شعـب حق الحياة حراً كريمـاً سعيداً .

هذا مـا نؤمن به . فمـن اين جئت بهذه الاتهامات التي كلتها للاستاذ كاظم جواد والتي كالهـا رفيقك محمد عمارة للاستاذ عبد الدائم ؟

ليست القومية نازية ، وليست الرأسمالية هي التي خلقت القومية ، فقد كانت القومية قبل الرأسمالية وبقيت بعدها - وقد ذكرت هذا - انما الذي خلقته الرأسمالية هو النازية والفاشية التي هي اعلى مراتب الرأسمالية وقد ذكرت هذا ايضاً . ثم هل تكفي اخطاء النازية لتكون سبباً في الدعوة لالغاء القوميات بنبوع الانسانية الخالد؟

هذه هي ملاحظاتي على جملة ابحاث في العدد الماضي من الآداب ، وقد اردت ان اثبت بها للكتاب الافاضل ان العروبة لن تموت ... وان كل محاولة لقتل هذه الفردية وهذه السمات التي تميز اي شعب عن الآخر هي اعتداء على الانسانية لانها صفعة للحرية وهدم لاقنية الحياة ، وقد اردت ايضاً ان يدرك الاقليميون الذين يؤمنون باقليميتهم الشريفة سيان آمنوا بأهميتهم اولا ... ان القومية مجال التنفس الطبيعي ، وان اي اختلال في هذا المجال يسبب توقف حركة الامة ودورتها الدموية وأن القومية الحقة لا تتعارض مع الانسانية الحقة ولكنها تتعارض مع الاقليمية والاممية ... وليتأكدوا اننا عرب اولا ... واخيراً .

الفحيص (الاردن) **ناجي علوش**

هذه المجلة

طبعت في مطابع « **الآداب** » الـتي تعلن استعدادها لطبـع الكتب والمجلات والنشرات التجارية طبعاً أنيقاً وسريعاً ، على آلاتها الاوتوماتيكية .

بيروت - الخندق الغميق - شارع الشدياق

ص. ب ١٠٨٥ تلفون ٢٦٩٩٦

ضد الاقليمية الشوفينية الضيقة

بقلم كاظم جواد .

من الملاحظ ان المباديء العلمية ، نظراً لصلتها المباشرة ، وغـير المباشرة ، بحقائق موضوعية ، تتفاعل ، وتتحول ، وتتطور ، تتميز لتلك الاسباب ، بنوع من المرونة التي هي في حقيقتها ، موضوعية ايضـاً ، وتتميز ايضاً بشيء مستقر نسبياً يتجاوب مع كل حـالة ظرفية . ومع ان هذه النسبية ، هذا الثبات النسبي ، المتحفز بدوره الى الحركة ، وهـذه المرونة ، تعتبر من الفضائل التي يتجاوب بها المنطق العلمي مع الحيـاة المتحركة ، المتطورة ابداً ، تصير في بعض الاحيان سلاحاً خطراً يوجهه بعض حملة الشعارات الموهومة ، بعض الانتهازيين ، ضـد مباديء الحياة العلمية نفسها ، موهمين القراء ، انهم انما يتحدثون بمنطق العلم . ومـن الشواهد على ذلك ، تلك الصيغ المكرورة الفارغة وتلك الألفاظ المبرقعة بالعالمية والانسانية الخ ... ومن الشواهد على ذلك ايضاً انضواء بعض الافراد الموتورين تحت اهداف بعض تلك الشـعارات لا لايمان بما تتضمنه من مثل عليا ، ومضامين ، بل اشباعاً لرغبة الانتقام من افراد تتصل بينهم اسباب خلافات فردية ، او التعويض ، او الشـهرة مثلا ... او على الاقل اتخاذ تلك ستاراً يحمي ضعفهم وتهافتهم .

اكتب هذه المقدمة ، لاتناول بالتعليق المقتضب ، قضية كثر الحديث عنها في هذه الايام . هي قضية القومية العربية ، التي ضاع معناها الانساني الرفيع على السنة بعض الافراد الذين لا يشعرون بأية مسؤولية حـينما يتصدون لبحث مثل هذه المسألة الخطيرة .

يلجأ الاستعمار ، في البلدان التي يستعبدها ، الى وسائل دموية محكمة لاثارة التفرقة ، وتأريث البغضاء بين ابناء الشعب الواحد الذي يستغـله ، معتمداً في ذلك على جملة اخطاء ، او على بضعة اوضاع تاريخية جامـدة رجعية ، تصر القوى الجديدة على تصفيتها ، وتخطيها وازالتها نهائياً .

ففي الهند مثلاً ، كان الاستعمار يؤجج لهيب العداء والمشاحنات الدامية بين الهندوس والمسلمين .. كان يحاول تمزيق الشعب الهندي الواحـد ، وقد ذهب المهاتما غاندي ضحية لذلك العـداء الطائفي البغيض . ولبنان مثلاً لم يزل حتى الان يئن من كابوس هذا التقسيم الطائفي ، المنصوص عليه على ما اعلم في صلب الدستور ، وفي بلادنا العربية بصورة اشمل ، نجده - اي الاستعمار - يحاول ان يغذي بعض النزعات الغيبية الرجعية العصبية الموهومة من فرعونية ، الى سومرية ، الى اشورية ، وفنيقية ، الى عرب وبربر في في شمال افريقيا ... الخ وتبعاً لذلك تأكدت في بعض النفوس مثل هـذه النزعات المدمرة ، عن وعي او لاوعي .

في العراق ، لم تبرز مطلقاً مثل هذه النزعات الخرافية المفتعلة ، على انها برزت في سوريا على يد احد الأحزاب ... وبرزت ايضاً في مصر على يد نفر لا تربطهم اي صلة اصيلة بشعب وادي النيل الشقيق .

لا ينكر ، ان هناك بعض اليمينيين العرب ، كان رد الفعل لديهم قوياً بسبب ما ينزله الاستعمار ببلادهم من كوارث ومصائب واحزان ، ولهذا اتسمت دعوتهم القومية بنوع من التصاب ، وبلون من الافكار الـتي ادت بهم الى هوة المثالية ، فابتعدوا عن الحياة ، ولا ينكر ايضاً ان هنـاك

من غير اليمنيين من يناصبون الفكرة القومية العداء الى حد الفوضوية والضياع ، وكلا الفئتين لا تصدران عن مسؤولية تجاه هذه الشعب الذي يتراوح الان بين مرحلتين تاريخيتين ، لا تصدران عن مسؤولية فكرية او حزبية او عقائدية حتى يستطيع الانسان ان يمسك بالخيوط الرئيسية لاسباب هذه الفوضى المؤسفة .

يقول لي احد اخواننا المصريين ان ليس هناك عرب بالمعنى العلمي للامة .. واذا بماذا نسمي انفسنا ، بماذا نسمي السبعين مليون نسمة ... اهم هنود ، اهم فرس ، اهم اسبان ... اهم انكليز...؟

لو كان للاخ المحترم اي اطلاع على المباديء العلمية في مفهوم الامة ، لما تجرأ ان يلغي بجرة قلم شعباً بكامله من الوجود ، فاليه ، والى امثاله اقول ما يأتي : —

يجب ان نميز قبل كل شيء بين دعوتين للقومية ، او على الادق بين قوميتين :

(١) قوميات امم مستعمرة (بالكسر) وقوميات امم مستعمرة. فلقد خضعت القوميات الاخيرة خلال الحكم الاستعماري الحديث لاضطهاد القوميات الاولى ، فلقد صاحب نشوء هذه القوميات الاولى في اوربا التطور الصناعي والثورة الصناعية ، حيث استغلت الفئات الحاكمة شعور القومية في وطنها الاصلي في سبيل التوسع الاستعماري واضطهاد الامم الاخرى ، تارة باسم (العالمية) وتارة باسم التمدين ، وتارة باسم الانسانية . واذكر بهذه المناسبة قولاً لاحد شعراء نيجريا « ها هم اتوا تتبعهم لعنة الهند وايران ومراكش ، ها هم اتوا ليجعلوا من نسائنا عواهر ، ومن رجالنا شحاذين باسم الانسانية !! »

ولهذا كان على الشرفاء في الاقطار المستعمرة (بالكسر) بالذات ان يكافحوا فئاتهم الحاكمة كي تتحرر المستعمرات المضطهدة ، لأنه لا يمكن لشعب ان يضطهد شعباً آخر ، ان يكن هو نفسه حراً . اما قوميات المستعمرات ، فتختلف عن تلك بسبب انبعاثها جنباً الى جنب مع الحركات التحررية الوطنية ، وهذا المثال يصدق بصورة جلية واضحة على القومية العربية ، فقد واكبت هذه القومية نشوء الحركة الوطنية العربية ، بحيث اصبح من الصعب على اي فئة خائنة استغلالها ضد اماني الشعب العربي ، هذا ولم يثبت لنا التاريخ الحديث ان القومية العربية قد كانت سبباً في الاعتداء على قوميات اخرى او اضطهادها واستعمارها . بل على العكس كانت هي نفسها المطاردة المضطهدة ، بل وكان الاستعمار الغربي ، على طول الخط يتآمر على ابادة ابنائها وتشتيتهم : — تشريد الآلاف في فلسطين ، ذبح الآلاف في المغرب العربي ، تحريم استعمال اللغة العربية في الجزائر الخ ..

ما الفكرة القومية العميقة الانسانية الا رد فعل ضد الطغيان الاستعماري ، انها مسألة تتعلق بكيان الشعب بأكمله ، وهي بصفتها سلاحاً من اسلحة التحرر الوطني ، تستمد اسسها العلمية من واقع حياة امتها الاقتصادية والجغرافية واللغوية والثقافية ، ومن هذه الاسس يتكون لكل شعب طابعه الخاص ، وظروفه التاريخية الخاصة به وحده . انا شخصياً لا اجد اي تعليل ، واي ربط بين ما يسميه احد اخواننا المصريين بالفتح العربي وبين القومية العربية : هل حقاً ان مصر احتلها العرب ام هي عربية اساساً ؟ حقاً ان العرب ليسوا اشرف الاقوام ، وان لغتهم ليست اشرف اللغات ، وان كانت من اللغات الجميلة ، التاريخية التي صمدت عبر العصور لشتى الكوارث والمحن ، كل ما هنالك ان ظروفاً تاريخية جعلتهم همزة وصل بين عدة حضارات ، وخالقي حضارة ، كانت بالنسبة الى دور حضاري معين ، تقدمية. اما ان الفتح العربي لم يستطع الغاء بعض القوميات فهذه حجة بجاني وليست ضدي ، فمن المستحيل ان تلغى قومية اصيلة من الوجود ، الا اذا سببت ذلك ظروف مادية قاهرة كالهجرة مثلاً وليس الان وقت شرح اسباب زوال القوميات .

وعلى هذا يكون انسحاب العرب من الاندلس ومن فارس دلالة على اصالة القوميتين الاسبانية والفارسية ، ولكن لم نسمع بهم انسحبوا من مواطنهم الاصلية حيث انطلقوا يفتحون ، الا في فلسطين حيث انتصرت القوة الاستعمارية ، والقوة شيء وقتي ، والاستعمار الى الزوال والاندثار المحتم .

ومن هذا يتضح لدعاة (الاقليمية الشريفة) ان القومية العربية لا تعني غير التكتل ضد الاستعمار ، غير الكفاح من اجل القوميات الاخرى المضطهدة ، غير الاستجابة لمرحلة تاريخية حاضرة، غير النضال بلا هوادة من اجل احياء تراثنا ، وتحقيق وحدتنا ، والارتفاع بذواتنا ، وتلقيح تقاليدنا الاساسية بقيم عصرية حديثة ، وكل ذلك انما تسنده اصول علمية: لغة ، وطن ، وتراث نفسي — عنصر مشترك . ثم ارجو من بعض اخواني في مصر ، الذين يوهمون القراء انهم يتحدثون عن فئات موهومة ، ان يميزوا بين الامةNation وبين العنصر Race ، فالعنصرية في اساسها لا تتحمل اي معنى من معاني القومية الشريفة ، في حين ان لكل امة قوميتها .والعنصرية او الدعوة الى التعصب العنصري نزعة برزت في المانيا الهتلرية لخدمة اغراض استعمارية معلومة ، وهي بالطبع ،صبغت هذه العنصرية بمباديء قومية ، كي تستغل بذلك شعور الالمان ، وللالمان تاريخ علمي وفلسفي وثقافي ، يعد مفخرة لهم وللعالم ، ولكن في الوقت الذي سقطت فيه الدعوة النازية العنصرية ، واختفت تقريباً من الوجود ، ظلت القومية الالمانية على حالها فلم يزل هناك شعب الماني ولغة المانية ، وارض المانية تكونت عبر تاريخهم الطويل .

وبعد فانا على استعداد ان اعترف مكرها ان :

وشربت شاياً في الطريق

ولعبت نرداً مع صديق

ورتقت نعلي

هي من الشعر العظيم ، شريطة ان يزيل بعض اخواننا في مصر سوء التفاهم هذا ، والذي لا اجد له اي مبرر . والغريب في الأمر انني لم افهم حتى الان اسباب سوء ذلك التفاهم ، ففي الوقت الذي يستكثر علينا احد الاخوان ان نكتب عن ايران او المغرب العربي او عن اي قطر آخر ، نجده يدعو الى العالمية في مجال آخر ، ولكن من خلال اقليمية (شريفة) وانا لا ادري كيف يكون الانسان عالمي النزعة واقليمياً من جهة اخرى .

مهما يكن فانا اؤكد انه ما من قوة في الوجود تستطيع ان تفصلنا عن شعبنا الحبيب في وادي النيل

بغداد — كاظم جواد